

النظريات الدلالية الحديثة والبحث اللغوي

د. خيرية بشير أحمد
قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب
جامعة الزاوية

مقدمة

يعد علم الدلالة أو علم المعنى فرعاً أساسياً في البحث اللغوي ومستوى من مستوياته وتطور علم الدلالة في شتى ضروب العلم والمعارف، وبلغ هذا العلم نضجه في رحاب علم اللغة، وظهرت نتيجة لذلك التطور ما يعرف بالنظريات الدلالية. إذ يمثل البحث في النظريات الدلالية، ركيزة أساسية من ركائز اللسانيات "علم اللغة الحديث" وقد لقي هذا الموضوع رواجاً واهتماماً عند اللسانيات الحديثة؛ لأنه يمثل قمة الدراسات اللسانية وغايتها، ذلك لأن موضوعه هو (المعنى) الذي من دونه لا يمكن أن توجد لغة. ولأهمية هذا الموضوع في الدرس اللساني كانت هذه الدراسة "النظريات الدلالية الحديثة والبحث اللغوي"، والتي تهدف إلى محاولة بسيط أبرز النظريات الدلالية والتي تناولت أنواع المعنى مع التركيز على التيار النفسي، والتعرف على مقاربة النظرية التصورية لظاهرة المعنى، وأهم

الضوابط المحددة لذلك، وتشترك توجهات النظريات الحديثة في دراستها للمعنى، أما الاختلاف فيقع من حيث المنهج والمبادئ، و"ركزت المناهج اللغوية في دراسة المعنى على دراسة المعنى المعجمي، أو دراسة معنى الكلمة باعتبارها الوحدة الأساسية لكل من النحو والسيمانتيك"⁽¹⁾. وقد أوضحت تلك النظريات الدلالية في رحاب البحث اللغوي، بأن علم الدلالة ليست كيان محدد يسمى المعنى ولكنه هو محاولة لفهم الكمالي والجمل على الإطلاق، فالمعنى ليس هو الكيان الذي تملكه الكلمات أو أي كيانات لغوية أخرى. وقد قُدمت بهذا الخصوص مناهج ونظريات متعددة ومتنوعة وسنكتفي هنا بالتركيز على بعضها لأهميتها، ومن النظريات التي سيدور الحديث حولها: النظرية الإشارية، النظرية التصورية، النظرية السلوكية.

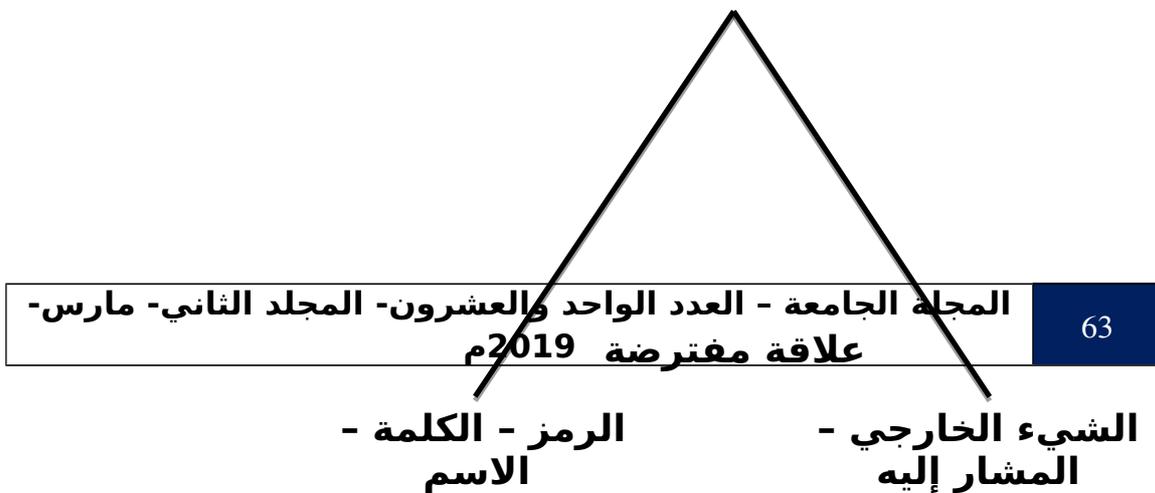
1- النظرية الإشارية:

تعد هذه النظرية من أقدم النظريات التي تعنى بالمعنى، وأركانها وعناصره، معتمدين في ذلك على النتائج التي توصل إليها العالم الألماني فرديناندي سوسير عندما قام بتحليل الإشارة اللغوية إلى مكونين هما: مكون صوتي وهو الدال (Signifier)، ومكون ذهني هو المدلول "Signified"، ومفهوم الإشارة عنده هو محصلة الربط بين هذين المكونين. أما العلاقة الحاصلة بينهما، فهي الدلالة، وهذه العلاقة متبادلة واعتباطية⁽²⁾، وبهذا فإن الوحدة الدلالية تتكون من ركنين فقط هما: "الدال والمدلول" وهما بتعبير أدق: الصورة الصوتية، والفكرة، وكلاهما مرتبط بعقد نفسي، فالأصوات التي نطلقها أشياء العالم التي نتحدث عنها تنعكس بشكل ما بالمفاهيم العقلية"⁽³⁾.

ويتضح من خلال ربط دي سوسير بين الدال والمدلول ربطاً محكماً مما يجعل الفصل بينهما أمراً صعباً، وذلك من خلال تمثيله للإشارة اللغوية بقطعة من الورق ذات الوجهين، والتي يمثل وجهها المدلول، ويمثل ظهرها الدال، ولا يمكننا الفصل بينهما، إذ لا يستطيع المرء أن يقطع الوجه معه دون

الظهر، لأنهما مرتبطان ارتباطاً جانبي الورقة⁽⁴⁾، وتعنى النظرية الإشارية أن "معنى الكلمة هو إشارتها إلى شيء غير نفسها، وهنا يوجد رأيان: أ. رأي يرى أن معنى الكلمة هو ما تشير إليه. ب. ورأي يرى أن معناها هو العلاقة بين التعبير وما يشير إليه. ودراسة المعنى على الرأي الأول تقتضي الاكتفاء بدراسة جانبيين في المثلث، وهما جانباً الرمز والمشار إليه، وعلى الرأي الثاني تتطلب دراسة الجوانب الثلاثة، لأن الوصول إلى المشار إليه يكون عن طريق الفكرة أو الصورة الذهنية"⁽⁵⁾.

- وإن فكرة اللفظ " الرمز وعلاقته بالأشياء قد ارتبطت في تاريخ الدراسات اللغوية باللغويين "أوجدن ورينشاردز" اللذان درسا هذه العلاقة في كتابهما (معنى المعنى) وتوصلا من خلال هذه الدراسة إلى هناك ثلاثة عوامل أساس تشملها أية علاقة رمزية، ومن هذه العوامل:
- 1- **الرمز نفسه (the symbol):** وهو عبارة عن الكلمة المنطوقة المتكونة من سلسلة من الأصوات المرتبة ترتيباً خاصاً، ككلمة (منضدة أو شجرة).
 - 2- **المحتوى العقلي أو الفكرة (Thought):** وهو ما يحضر في ذهن السامع عندما يسمع كلمة (منضدة أو شجرة)، وهذا المحتوى قد يكون صورة بصرية أو صورة مهزوزة، أو حتى مجرد عملية من عمليات الربط الذهني، وهذا ما سماه هذان العالمان بـ"الفكرة" أو الربط الزمني.
 - 3- **الشيء نفسه:** أو الشيء الخارجي المشار إليه (Referant) وبمسمى بالموضوع والمقصود، بمعنى الشيء المادي المحسوس⁽⁶⁾.
- وتتضح العلاقة بين العناصر الثلاثة من خلال الشكل الآتي: الفكرة - المرجع - المحتوى الذهني.



ويتضح من هذا المخطط أنه لاعلاقة مباشرة بين الرمز والموضوع (الدال والمدلول) وأشار الخط المتقطع إلى هذه العلاقة المفترضة، وهذه العلاقة كانت ولا زالت شغل اللغويين قديماً وحديثاً.

ونجد أن دي سوسير لم يشير إلى الأشياء (objects) التي تمثلها الإشارات اللغوية، عندما نريد أن نشير إلى ما حولنا، وهذه نقطة خلاف واضحة بين دي سوسير وصاحبي المثلث الإشاري؛ ويرجع هذا الاختلاف إلى أن دي سوسير أبعد الأشياء ولم يشير إليها؛ لأنها لا تتصل بنظام اللغة، أي بوصفها خارج نظام اللغة، والإشارة اللغوية عنده محصلة الترابط بين الدال والمدلول، أو بين الصورة الصوتية والفكرة، ولا علاقة للإشارة اللغوية بالصوت الحقيقي المحسوس بصفة واقعة فيزيائية، ولا علاقتها لها أيضاً بالأشياء الحقيقية الواقعية، وإن هذا الفهم لمكوني الإشارة اللغوية ذو طابع نفسي، إذ أن ارتباط الأفكار "المدلولات" بما يمثلها من الأصوات اللغوية هو عملية نفسية سيكولوجية هذا بحسب دي سوسير، أما بحسب مفهوم موغل في القدم فإن الإشارة اللغوية هي شيء يمكن إدراكه حسياً، يرمي إلى شيء ينتج عن ذلك بشكل مباشر أنه يوجد اسم / صوت، يرمز إلى شيء⁽⁷⁾، فالفكرة المعنية تثير الصورة الصوتية التي ترتبط بها، وهذان العنصران يتحدان في دماغ الإنسان بأصرة التداعي "الإحياء"، فالإشارة اللغوية إذا هي كيان نفسي "سايكولوجي" له جانبان فحسب⁽⁸⁾.

هذا، وحاول اللساني "غيرو" أن ينفي التناقض بين دي سوسير وصاحبي المثلث الدلالي، وذهب إلى أنه لا اختلاف إلا من حيث القصد. ويؤكد دي سوسير الطابع النفسي لكل ظاهرة إنسانية، في حين يبرز صاحباً المثلث استقلال الدوال والأشياء⁽⁹⁾.

ويظهر أن نقطة الخلاف باقية بين دي سوسير وصاحبي المثلث، وهو تناقض جوهري في الأساس، إذ يقول دي سوسير: "إذا أردنا أن نبرهن على أن اللغة ليست إلا نظاماً للقيم، فما علينا إلا أن نتأمل عنصرين، يشتركان

في تأدية اللغة لوظيفتها وهما: الأفكار والأصوات⁽¹⁰⁾ فهذا نص منه يدل على أن الصوت (الدال) والفكرة المدلول، وهما يمثلان نظام اللغة. وأصحاب هذه النظرية يقولون إن المشار إليه لا يجب أن يكون شيئاً محسوساً قابلاً للملاحظة، فإذا نطق المتكلم بكلمة مثل (الشجرة) فإن الأصوات الناتجة من النطق هي التي تعني عنده الصيغة، ثم إن صورة الشجرة، التي ارتسمت في ذهن السامع هي التي عبّر عنها بالمحتوى، وجعل العلاقة بين هذه الصيغة وذلك المحتوى (أي بين الرمز والفكرة) علاقة طبيعية وشبهها -سبق ذكره- بورقة لها وجهان، ومن هذا المنطلق توصل دي سوسير إلى أنه لا علاقة دلالية بين الرمز والموضوع، فلا علاقة مثلاً بين لفظ (شجرة) من حيث هي أصوات تصدر عن المتكلم وبين ذلك النبات المعروف، وإنما تكون العلاقة بين الرمز (الصورة الصوتية)، والفكرة المتكونة في ذهن السامعين (الصورة الذهنية)⁽¹¹⁾.

وقد يكون المشار إليه غير محدد، مثل لفظة (قلم) التي لا تشير إلى قلم معين، لأنها لا يمكن أن تطلق على أي قلم، ولذا رأى بعضهم أن يقال أنها تشير إلى (طبقة الأقلام) أو (نوع الأقلام) وكذلك الفعل (يجري) الذي يشير إلى نوع يشتمل كل أفعال الجري⁽¹²⁾.

وعلى أساس هذه النظرية نشأت نظريات المدلول والتي تناولت أنواع الدلالة وأقسامها، كما برزت نظريات عكفت على دراسة الإشارة اللغوية وأحصت أقسامها، ونشأت فكرة العلامة أو السّمة، وهذا ساهم بدوره في ميلاد جديد هو "علم العلامة" أو "السيمولوجية". وهذا البحث شكل عقبة كأداء أمام علم الدلالة، والمتمثل في دراسة الصورة الذهنية التي تتميز بالتجريد، مما دفع المجال واسعاً أمام الباحثين، وأطلق عليه بعضهم "عالم المفاهيم" وسماها بعضهم الآخر "العوالم الدلالية" والتي تمثل الدعامة الرئيسية في نظرية الأوضاع التي تشكل الامتداد الطبيعي للنظرية الإرشادية، إن مصدر الدلالة - كما ترمي إلى ذلك نظرية الأوضاع- يكمن بالأساس في المراجع الموجودة في العالم الخارجي وتبرز دلالة ما لصيغة معينة بواسطة مجموع العلائق المتشابهة بين جملة الأوضاع⁽¹³⁾.

وفي هذا الجانب يقول عبدالقادر الفاسي: " المكان الطبيعي للمعنى هو العالم الخارجي لأن المعنى يبرز في العلائق المطردة بين الأوضاع، والمعنى اللغوي يجب أن ينظر إليه في إطار هذه الصورة العامة للعالم، عالم مليء بالمعلومات وأجسام موفقه لإلتقاط جزء من هذه المعلومات" (14).

وفي الحقيقة أن الدلالة لا يتم التعرف عليها معجمياً، وإنما مروراً برصد جملة العلائق المتشابكة والتي تحدد أوضاع العالم الخارجي، فإن " الفكرة الرائدة في دلالة الأوضاع هي أن معنى جملة يتحدد بعلاقة الكلام والوضع الموصوف " (15).

ودعماً للنظرية الإرشادية التي حصل توسع في مفهومها ولاحظ اللغوي "بوتمن putman" أن عالم المفاهيم المودع في العالم الخارجي أضخم بكثير مما هو في الرأس فالمفاهيم هي الأساس الذي أنبت عليه نظرية الأوضاع التي تنظر إلى المعنى أنه علاقة بين الكلام المنتج والأوضاع الموصوفة، وهذه النظرية تعتمد على الدلالة الخارجية للغة وانصهار المعلومات اللغوية ضمن التيار المعلوماتي، وما دفع إلى القول بذلك أن المعنى لا يتموضع في العالم الخارجي، ولا في النفس، وإنما يتموضع في عالم المفاهيم كما ذهب إلى ذلك العالم اللغوي (فريجة) الذي عدّ المفاهيم هي الوسيط الذي يربط العناصر الثلاثة: الأذهان تمسك بالمفاهيم، والكلمات تعبر عنها، والأشياء يحلّ عليها بواسطتها (16).

ونتيجة لتلك الصيغة العقلية التحليلية للغة في إطار هذه النظرية فقد تعرضت النظرية للعديد من الاعتراضات والانتقادات منها:

- 1- أنها تدرس الظاهرة اللغوية خارج إطار اللغة.
- 2- أنها تقوم على أساس دراسة الموجودات الخارجية "المشار إليه".
- 3- بعض الكلمات والألفاظ ليس لها مشار إليه في الخارج، مثل:
 1. بعض الأدوات والحروف: نحو: إنَّ، أنَّ، ليت، لعل، لا، لكن، أو... إلخ.
 2. الألفاظ التي لها دلالات معنوية، أو عقلية كالصدق، والإخلاص، والأمانة، والوفاء، والصبر، والإيمان... إلخ.
 3. أشياء وهمية خافية كالغول، والعنقاء.

4. أشياء غيبية: كالملائكة، والجن، والعفريت.
فهذه النظرية بما فيها مصطلحات ومدلولاتها " لايمكن أن تضيف
جديداً إلى الدراسات اللغوية، بل على العكس من ذلك، قد تسيء إلى هذه
الدراسات؛ لأن استعمالها في هذا المجال من شأنه أن يؤدي إلى الخلط في
مراحل البحث وفي نتائجه، أضف إلى ذلك أننا -بوصفنا لغويين- لا نعرف
شيئاً أو نعرف قليلاً عن الذهن ومحتوياته، كما أننا لسنا مطالبين بمعرفة ما
يجري فيه، والحق أنه ليست لدينا المقدرة على هذه المعرفة"⁽¹⁷⁾.
4 أن معنى الشيء غير ذاته، فمعنى كلمة "تفاحة" غير التفاحة نفسها
"التفاحة" تؤكل ولكن المعنى لا يؤكل.
5 هناك فرق بين المعنى والمشار إليه، فقد يكون هناك معنيان والمشار
إليه واحد، مثل: نجمة الصباح، ونجمة المساء، فلفظة "نجمة" في
المثالين كليهما يشير إلى الجرم السماوي المعروف وأيضاً يدعى
الشخص الواحد عماً وأباً وأخاً، وخالاً، و جدّاً⁽¹⁸⁾.

2- النظرية التصورية:

تعتبر هذه النظرية اللغة وسيلة أو أداة لتوصيل الأفكار، أو تمثيلاً
خارجياً ومعنوياً لحالة داخلية، فالأفكار التي تدور في أذهاننا تملك وجوداً
مستقلاً ووظيفة مستقلة عن اللغة"⁽¹⁹⁾
هذه النظرية تمثل مستوى آخر من مستويات الدراسة الدلالية⁽²⁰⁾،
فإذا كانت الإشارية - كما رأينا - عكفت على المعنى وما يتعلق به، فإن
النظرية التصورية اعتمدت على مبدأ التصور الذي يمثله المعنى الموجود
في الذهن، وإذا أردنا أن نقف على جدور هذه النظرية والتي تعود إلى
الفيلسوف الانجليزي (جون لوك) في القرن السابع عشر، الذي سماه
النظرية العقلية، ونادى فيها بأن " استعمال الكلمات يجب أن يكون الإشارة
الحساسة إلى الأفكار، والأفكار التي تمثلها تعدّ مغزاها المباشر الخاص"⁽²¹⁾.
وأطلق بعض الباحثين على هذه النظرية اسم النظرية الفكرية لأن
" الكلمة تشير إلى فكرة في الذهن وأن هذه الفكرة هي معنى الكلمة"⁽²²⁾.

وتعتبر النظرية التصورية " المعنى موضوعاً نفسياً، وأن بناء معاني التعابير اللغوية ليس إلا جزءاً من العمليات النفسية أو الذهنية التي تقوم عليها القدرة اللغوية الباطنية لدى المتكلم " (23).

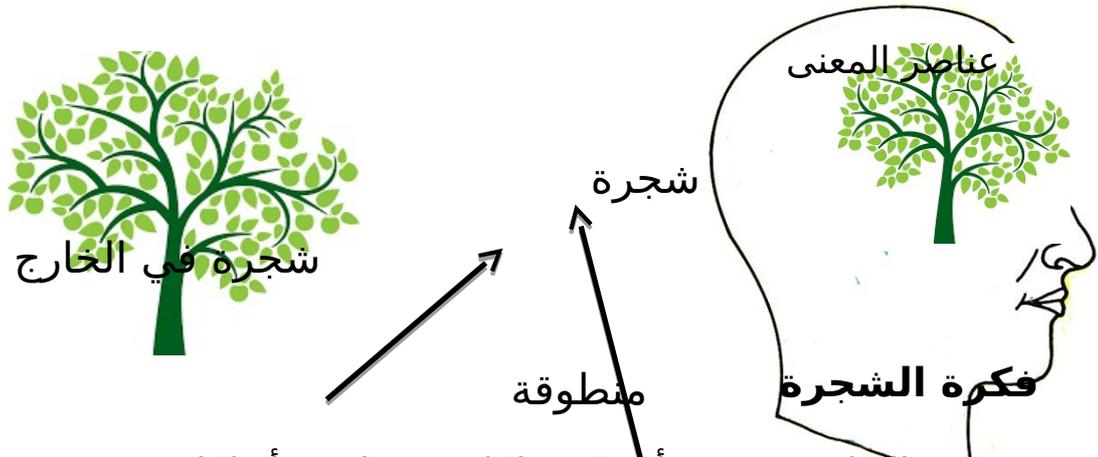
فهذه النظرية تحاول الوقوف على القواعد المستنبطة في الذهن والمنظمة للمعارف، وهذا القول يتقاطع مع النظرية التوليدية النفسية، التي تبحث وتفسر تلك القدرة اللغوية البشرية، وخاصة مع تلاميذ تشومسكي، في إطار ما عرف بالدلالة التأويلية، (ففودور) اعتبر المعنى هو تلك الصورة الذهنية التي تكون في الذهن عن ذلك الشيء، ومثل على ذلك بـ " الأعمى الذي يستخدم العصا قصد للمس المتتالي لعدد من أجزاء شيء فيزيائي كالمكعب، وبين من خلال هذا المثال أن السلسلة من اللمسات تسمح للأعمى ببناء صورة المكعب في ذهنه، من دون أن يعني ذلك أن صورة المكعب منطبعة فيه، بمعنى أن الذهن يبني بواسطة مصادره ومبادئه البنيوية الخاصة تمثيلاً ذهنياً انطلاقاً من هذه المتواليات من المنبهات اللمسية " (24).

إذاً " الدلالة التأويلية افتراض حول القدرة اللغوية باعتبارها قدرة نفسية، وهو افتراض يعالج التعابير اللغوية، وإحالاتها في إطار تصور نفسي صريح، والإحالة على الأشياء ترتبط بالصورة الذهنية التي يكونها المتكلم عن هذه الأشياء، وهذه التصورات توجد في ذهن الفرد لا في الواقع، إنها كيانات تصورية يخلقها الفرد عند تأويله لتجربته " (25).

وإن تركيز هذه النظرية على الأفكار والتصورات، وهذه الأفكار والتصورات لابد أن تكون حاضرة في ذهن المتكلم، وأن المتكلم يجب عليه أن يعبر عن تلك الفكرة بصورة لغوية (صوتية لفظية) يدرك السامع هذه الفكرة كما في ذهن المتكلم، ويمكن توضيح ذلك بالمخطط الآتي:

الفكرة عند المتكلم ← صورة لغوية ← الفكرة عند السامع
(وهي الفكرة نفسها عند السامع)

فإذا تلفظ المتكلم مثلاً بلفظ (شجرة) فإنه بذلك يشير إلى فكرة في ذهنه، وفي ذهن السامع؛ لأن كلاهما يملك تصوراً عن "الشجرة" وهو تصور واحد، ويمكن توضيح ذلك بالرسم التخطيطي:



وهذه النظرية تقتضي أن يكون لكل تعبير لغوي أو لكل معنى متميز للتعبير اللغوي، وأن يملك فكرة، وهذه الفكرة يجب:

- 1- أن تكون حاضرة في ذهن المتكلم.
 - 2- المتكلم يجب أن ينتج التعبير الذي يجعل الجمهور يدرك أن الفكرة المعنية موجودة في عقله في ذلك الوقت.
 - 3- التعبير يجب أن يستدعي الفكرة نفسها في عقل السامع⁽²⁶⁾.
- ويلاحظ أن هذه النظرية تركز على الأفكار أو التصورات الموجودة في عقول المتكلمين والسامعين بقصد تحديد المعنى، ومعنى العبارة هو ما تقوم بتصويره سواء أكان ذلك على سبيل التمثيل أو الرمز فيكون معنى العبارة هو الواقعة التي تصورها أو الموقف الذي تمثله أو حالة الأشياء التي ترمز إليها، وكأن العبارة تقدم صورة لما هو في الواقع الخارجي من مواقف أو وقائع⁽²⁷⁾.

قيود النظرية التصويرية:

تخضع هذه النظرية لمجموعة من القيود التي تضمن سلامة التصور، ومن بينها: " قيد التعبيرية، ويتعلق بقدره النظرية على التعبير عن الفروق الدلالية التي تقيها اللغات الطبيعية، وقيد الكلية ويتعلق بكلية مخزون البنيات الدلالية التي تستعمله اللغات الخاصة، وقيد التأليفية ويتعلق ببناء معاني الجمل انطلاقاً من معاني أجزائها، وقيد الخصائص الدلالية، ويتعلق برصد

الخصائص الدلالية في التعبيرات اللغوية بالترادف والشذوذ الدلالي، ثم قيد الحاسوبية، ويتعلق بقبول البرمجة الحاسوبية⁽²⁸⁾. وعلى أية حال فإن النظرية التصورية تخضع لقيدين مهمين هما: القيد النحوي: "ويقول هذا القيد إنه يجب تفضيل نظرية دلالية تفسر التعميمات الموجودة في كل من المعجم والتركيب، على اعتبار أن المعجم اعتبار أن المعجم يعطينا المحتوى والتركيب يعطينا الشكل الصوري الملائم لهذا المحتوى"⁽²⁹⁾.

وهو بهذا يصوغ علاقة اعتبارية بين الدلالة والتركيب، بمعنى أنه يفسر ذلك التعالق بين المستويين، خاصة في مسألة تعليم وتعلم اللغات، لذلك لا يمكن أن ندرس التركيب صورياً من دون معنى، ثم القيد المعرفي الذي يرى أن نظرية البنية الدلالية في اللغة الطبيعية هي في حد ذاتها نظرية لبنية الفكر، فاللغة تعكس الفكر، وهذا يفرض تلائم المعلومات التي تحملها اللغة مع المعلومات الصادرة من المحيط⁽³⁰⁾. هذا وأسس (تشارلز بيرس) نظريته البراجماتية والتي اعتبرت امتداداً للنظرية التصورية.

إذ يرى بيرس: " أن تصورنا لشيء ما يتألف من تصورنا لآثاره، فالتيار الكهربائي مثلاً لا يعني مرور موجة غير مرئية في مادة ما، وإنما يعني مجموعة من الوقائع مثل إمكان شحن مولد كهربائي، أو أن يدق جرس، وأن تدور الآلة، وإذن فمعنى كهرباء هو ما تفعله، وإذن فالتصورات المختلفة التي تحقق نتيجة عملية واحدة، إنما هي تصور واحد أو معنى واحد، والتصورات التي لا ينتج عنها آثار لا معنى لها"⁽³¹⁾.

المآخذ على النظرية:

فمادامت هذه النظرية تعتبر أن المعنى هو التصور الذي يحمله المتكلم، ويحصل للسامع حتى يتم التواصل والإبلاغ، فإن عالم الأشياء متجانس كما أن التصورات متباينة من فرد لآخر، فإن عالم الأشياء متجانس كما أن التصورات متباينة من فرد لآخر، ومن هنا يمكن القول إن النظرية

- التصورية سقطت في مجموعة المشاكل أثناء دراستها لإشكال المعنى، ويمكن إجمالها في النقاط الآتية:
- 1- انتقدت النظرية السلوكية النظرية التصورية في تركيزها على التصورات أو الأفكار، معتبرة هذه الأخيرة، أي نقل الأفكار، ملكاً خاصاً للمتكلم؛ إذ لا يمكنه نقلها بكل تفاصيلها للسامع، ولكي يتجاوز رواد النظرية التصورية هذا الانتقاد ذهبوا إلى التأكيد على فكرة ارتباط الأفكار بالتصورات.
 - 2- ويؤخذ على النظرية أيضاً أن هناك ألفاظاً كثيرة غير قابلة للتصور بل إنه ليس لها تصور عقلي سوى ألفاظ الكلمات مثل:
أ. أدوات وحروف المعاني، مثل: إن، أن، عن، في، إلى، كيف، كي... إلخ.
ب. والكلمات التجريدية، نحو: الديمقراطية، الإمبريالية، والاقتصاد، والاجتماع، التاريخ،... إلخ.
 - 3- قد تشترك عبارتان في نفس الصورة⁽³²⁾.
" وقد كان رفض النظرية التصورية هو المنطلق لمعظم المناهج الحديثة التي ظهرت خلال هذا القرن، والتي اتجهت إلى جعل المعنى أكثر موضوعية وأكثر علمية من جهة أخرى "⁽³³⁾.
ولذا فإن أفضل طريقة لدراسة المعنى -كما يراها البعض- أو الدلالة هو دراسته من ناحية علاقته بالثقافة والفكر، فالعلاقة بين اللغة هي أن معظم اللغة مضمّن في الثقافة ف لغة المجتمع تمثل أحد جوانب ثقافته وهي كما يقول "واردجوديتاف" (علاقة الجزء بالكل)⁽³⁴⁾.
ويتضح مما سبق، إن النظرية التصورية تعد إحدى النظريات النفسية في البحث الدلالي، سواء من حيث مقدماتها واختياراتها العامة، أو من حيث الوسائل التي تتيحها للتحليل الدلالي في اللغة الطبيعية.

3- النظرية السلوكية:

إن التجديد الذي طبع النظرية التصورية أدى إلى نشأة اتجاه آخر في البحث الدلالي، يستبعد الأفكار المجردة، وتمثل في النظرية السلوكية والتي نشأت في أحضان علم وعلماء النفس، وقد خضع أصحاب هذه النظرية

للمنحى العلمي الذي طغى على ساحة البحث وقتذاك وهو منحى يرتكز على الملاحظة والمشاهدة، فقد عهد العلوم التجريدية النظرية، وأعطت هذه النظرية السلوكية اهتماماً للجانب الممكن ملاحظته علانية وهي بهذا تخالف النظرية التصورية التي تركز على الفكرة أو التصور⁽³⁵⁾.

ونشأت هذه النظرية على يد الرائد الأمريكي "ليونارد بلومفيلد Bhoufld حيث بناها على أساس دراسة للدلالات اللغوية، وأنه حسبه يصعب تحديد تلك الدلالة في صيغة لغوية، إذ يقول: " إن دلالة صيغة لغوية ما: هي في المقام الذي يفصح فيه المتكلم عن هذه الدلالة والرد اللغوي أو السلوكي الذي يصدر عن المخاطب "⁽³⁶⁾.

وإن البحث عن ماهية الدلالة أدى بالعالم اللغوي الأمريكي "بلومفيلد" إلى هجر الاتجاه العقلي والبحث عن الدلالة في السلوك اللغوي الظاهر، وقد عرف معنى الصيغة اللغوية بأنها الموقف الذي ينطقها المتكلم فيه والاستجابة التي تستدعيها من السامع، وهو تعريف سلوكي محض ووضح مفهومه للمعنى بمثاله المشهور عن جيل وجاك: إذا يسيران في الطريق ثم يرى جيل تفاحة على الشجرة، وبما أنها جائعة تطلب من جاك إحضارها لها، فيتسلق جاك الشجرة ويقوم بإحضار جاك التفاحة بحبل استجابة، فدلالة كلمة "تفاحة" هي تلك الثمرة التي إنقطعها جاك⁽³⁷⁾.

إن القول بمبدأ المثير والاستجابة يستدعي الأخذ بالمقام الذي حصل فيه الحدث الكلامي، ولكي يتم تحديد دلالة صيغة لغوية ما إنما هي المقام الذي يفصح فيه المتكلم عن هذه الدلالة والرد اللغوي أو السلوكي الذي يصدر عن المخاطب⁽³⁸⁾. ولأن المقام هو المميز بين الإمكانيات المتعددة للدلالة خاصة وأن الصيغة اللغوية قد أخذت أبعاداً اجتماعية وثقافية، وتعلقت بها قيم أسلوبية وتعبيرية، هذا وقد بنى بلومفيلد نظريته على الأسس الآتي:

1- رفض النظرية السلوكية لكل ظاهرة غير قابلة للملاحظة، إذ دعم بلوفيلد نظريته بمثال - علم النفس- الذي بنى تجربته على الحالة النفسية، والظروف التي يمرّ بها الإنسان، كل هذه الأمور لا يمكن ملاحظتها مباشرة، ولكي تلاحظها ينبغي النظر إلى السلوك الذي يصدر عن الإنسان أو الأغراض التي تظهر عليه من دون إهمال لجوانب اللغة، لذا

- أصبحت اللغة سلوكاً نطقياً أو لغوياً، انطلاقاً من أنها تستطيع معالجة الفكرة كسلوك ناتج لا كفكرة مدركة.
- 2- اتجاهها إلى التقليل من دور الدوافع الغريزية والفطرية، والتأكيد على دور التعلم والاكْتساب، لذا يرون أن التجربة هي طريق المعرفة وليس التفكير.
- 3- اتجاهها الآلي أو الحتمي الذي يرى أن كل شيء في العالم تحتمه قوانين فيزيائية عامة هي المؤثرات وآراء كل سلوك لغوي أو حركي ومثيرات واستجابات أخرى في سلسلة متتابعة.
- 4- الاعتقاد بأنه لا فرق جوهري بين الإنسان والحيوان والسلوك اللغوي الإنساني لا يختلف عن النظام الإرشادي الحيواني⁽³⁹⁾.
- والشكل الذي يستعمل عادة لتمثيل العلاقة بين المثير والاستجابة هو:
- م □ س
(م = مثير، س = استجابة)
- ويمثل السهم علاقة عرضية. المثير سبب، والاستجابة أثره ونموذج السلوك بعد سلسلة من المثيرات - الاستجابات هكذا:
- (م 1 □ س 1) □ (م 1 □ س 2) □ (م 2 □ س 2)
- فالكلمة الأولى للحدث الكلامي تنتج كاستجابة (س 1) لبعض المثيرات الداخلية (م 1)، وإنتاج (س 1) يخدم كمثير فيصبح (م 2)، ويكون مثيراً للكلمات الثانية (س 2)... وهكذا⁽⁴⁰⁾.
- وقد ضرب (بلومفيلد) مثلاً للحدث الكلامي بوصفه مثيراً واستجابة يتمثل في -سبق ذكرها- القصة الآتية:
- "جاك" و"جيل" في الطريق تشعر جيل بالجوع، وترى تفاحة على الشجرة، فطلب من جاك الشجرة ويحضرها، ثم تأكلها جيل.
- هذا ويحدد (بلومفيلد) المثير الأول هنا بجوع جيل ورؤيتها التفاحة، فتحدث استجابة لهذا المثير، تتمثل في طلبها من جاك إحضار التفاحة، إلا أن هذه الاستجابة تعد عند (بلومفيلد) استجابة بديلة ويرى السلوكيين -بناءً على ما تقدم- أن "السلوك الإنساني يوصف أكمل وصف وأدق عن طريق اعتبار الظاهر الفسيولوجية وغيرها من الظواهر المادية التي تصحب سلوك

الأفراد ولايتأتى عندهم دراسة الظواهر الإنسانية دراسة علمية إلا بهذا الطريق.... فينبغي عند السلوكيين شرح مصطلحات مثل الإدارة، والشعور والفكرة والانفعال... ولذلك نجد في دراسات (بلومفيلد) اللغوية مصطلحات مثل Response=الاستجابة و Substitute Response = الاستجابة البديلة، Substitute Srimulus المثير البدلي... فمعنى الجوع مثلاً في قولي "أنا جائع" يعرف بالتقلص العضلي وما يحدث في المعدة من إفرازات، وما قد يصحب ذلك من عطش..."⁽⁴¹⁾.

وإن القول بمبدأ المثير والاستجابة تستدعي الأخذ كذلك بالمقام الذي حصل فيه الحدث الكلامي، ولكي يتم تحديد دلالة صيغة لغوية تحديداً دقيقاً وجب حصر جميع المقامات التي صاحبت استعمال الصيغة في الحدث الكلامي، ومعرفة شاملة لكل ما يشكل عالم التكلم: " دلالة صيغة لغوية ما إنما هي المقام الذي يفصح فيه المتكلم عن هذه الدلالة والرد اللغوي أو السلوكي الذي يصدر عن المخاطب "⁽⁴²⁾. لأن المقام هو المتميز بين الإمكانات المتعددة للدلالة خاصة وإن الصيغة اللغوية قد أخذت أبعاداً اجتماعية وثقافية، وتعلقت بها قيم أسلوبية وتعبيرية مما يعيق التواصل والإبلاغ، وتداخل المعنى الرئيس والهامشي، ولذا فالأخذ بالعلاقة المتينة بين القول والمقام سوف يزيل كثيراً من اللبس في الأحداث الكلامية: " إذ أن اللجوء إلى المقام أو حال الخطاب يساعد على الخصوص في:

- 1- استكشاف مرجع الصيغ اللغوية للقول.
- 2- اختيار وإيتار تأويل بعينه في حالة الكلام الملبس أو المبهم.
- 3- استكشاف قيمة القول (تهديد، وعد، وعيد...).
- 4- تحديد خاصة القول (هل هو موسوم أو غير موسوم) صيغ لغوية خاصة بالفلاحين مثلاً "⁽⁴³⁾.

ويبدو أن هذه النظرية يقدر ما كشفت عن عوالم خفية ودفعت بالبحث الدلالي خطوات نحو الأمام، بقدر ما فتحت أبواباً عن عوالم أخرى بقيت خفية، ذلك أن الأخذ بمبدأ دراسة الأفعال الكلامية القابلة للملاحظة والمشاهدة لم يقدم الأجوبة الكافية عن تلك التساؤلات حول ضبط دلالة الصيغة اللغوية ضبطاً يخضع لمعايير علمية دقيقة تنسحب على كل الصيغ

والتراكيب اللغوية، فوجود القيم الحافة وتكون المعنى الديناميكي الذي لا يأخذ ثورة قادرة ثابتة، بشكل أهم العوائق أمام نظرية (بلومفيلد) السلوكية⁽⁴⁴⁾.

تطوير النظرية:

تطورت هذه النظرية على يدّ الفيلسوف الأمريكي (شارل موريس Charles Morris) الذي لاحظ أنه قد تتعدد الاستجابات لمثير واحد، يعني اشتراك دلالات في صيغة لغوية واحدة، وذلك أن المنطوق قد يحمل قيماً أسلوبية ومعانٍ حافة يتولد عنها استجابة متنوعة وأخرج (موريس) من معنى الصيغة، الاستجابة، أو ردّ الفعل، واكتفى بمجرد الميل أو الرغبة، ويعني ذلك أنه إذا وجد ميل أو رغبة صريحة للقيام باستجابة معينة لمثير "منطوق لغوي" فالدلالة على وجود ارتباط يجعل الاستجابة تكون لذلك المثير، وهذا الارتباط بمثابة الاشتراط وقد مثل ذلك بالعلاقة "إذا كانت ط حينئذٍ تكون س"، حيث ط: اشتراط⁽⁴⁵⁾.

عيوب النظرية:

- لقد قدمت اعتراضات عديدة لهذه النظرية منها ما يأتي:
- 1- لا يمكن فهم كثير من الكلمات وفق هذا التحليل العلمي، فإذا تمكنا من تفسير الجوع بتقليص عضلات المعدة ورؤية التفاحة بالموجات الضوئية المنعكسة فإنه يتعذر مع كلمات مثل: القبح، والكراهية، والحب... إلخ.
 - 2- المثير الواحد قد يولد أكثر من استجابة سواء كانت نتفقه في مغزاه أم تتعارض معه، فقد تكون:
 1. تقديم الطعام له.
 2. أو توبيخه قائلين: ألم تأكل الطعام قبل؟
 3. أو تجيبه قائلين: هيا اذهب إلى غرفتك، فقلد حان وقت نومك. وهنا يلزم اختلاف معنى (إني جائع) للاختلاف الاستجابات له.

- 3- يمكن أن تكون الاستجابة لأكثر من مثير واحد فتسلق الشجرة يمكن أن يكون نتيجة جوع "جاك" أو أنه لص، أو لغرض إدخارها لوقت الجوع، ولذلك ردّ " كمال بشر" هذه النظرية، ورأى أنها لا تسير على منهج لغوي صحيح، إذ يقول: " ليس من المقبول أن ننظر إلى هذا المعنى كما لو كان مجموعة من المثيرات والاستجابات الآلية، إذ لا يمكن تجريد الكلام من العوامل الإنسانية كالذواضع والرغبات التي تنبئ عنها... ويجب علينا أن نعترف بها، ولكن في أسلوب لغوي محض " (46).
- 4- هذه النظرية يلزم منها نسبة معانٍ للثرثرة وللغو الذي لا معنى له، ولكن قد يكون له ردة فعل غاضبة أو ساهرة.
- ومع ذلك فإن المدرسة السلوكية: " لا تتجاهل بعض ما نسميه في الحقيقة شخصية المتكلم وشخصية السامع وبعض الظروف المحيطة بالكلام: بل إن هذه المدرسة بعنايتها بتحليل المظاهر الفسيولوجية والفيزيكية خاصة قد وجهت عناية اللغويين نحو ربط المعنى بمجالات غير الكلام، بمجالات تستلزم التحليل على مستويات خاصة " (47).
- ولقد طبقت هذه النظرية على الإنسان تجارب كانت أساساً مطبقة على الحيوانات، وهذا خطأ كبير للاختلافات الموجودة بين الإنسان والحيوان. وعلى الرغم من وجود بعض النقائص التي اعترت هذه النظرية، إلا أنها وجهت اللغويين إلى أمر مهم، وهو الاهتمام بالجانب القابل للملاحظة والمشاهدة في دراسة اللغة.

الخاتمة:

- ومن خلال هذه الدراسة المتواضعة توصلت إلى النتائج الآتية:
- 1- إن المعنى في النظرية الإشارية هو ما تشير إليه، ولكن فكرة وجود كلمتين مترادفتين تشيران إلى المرجع نفسه، هو أمر لا يسعفنا للحصول على المعنى.
- 2- إن المعنى في النظرية السلوكية هو حصيلة العلاقة بين المثير والاستجابة، وأغفلت مجموعة الأحداث التي لا تحدث استجابات وميولات، والتي لا يمكن قياسها وملاحظتها.

- 3 سقطت النظرية التصورية في مجموعة مشاكل، إذ أنها تفسر الأشياء والمعاني الغامضة بأشياء أخرى غامضة، وهي الأفكار والتصورات.
- 4 إن النظرية السلوكية نجحت في استخدام المنهج العلمي في دراسة اللغة.

فهرس الهوامش:

- 1 () علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 53.
- 2 () ينظر علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير، ص 86، 87، والألسنية (علم اللغة الحديث)، المبادئ والأعلام، ميشال زكريا، ص 179.
- 3 () علم الدلالة، بالمر، ص 31.
- 4 () ينظر التحليل الدلالي، إجراءاته ومناهجه، كريم زكي حسام الدين /53، علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 55.
- 5 () Theories of meaning 20، وعلم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 55.
- 6 () ينظر دور الكلمة في اللغة، أولمان، ص 76، 77، وفي علم الدلالة، محمد سعد محمد، ص 29، ومقدمة لدراسة علم اللغة، حلمي خليل، ص 147.
- 7 () ينظر القضايا الأساسية في علم اللغة، كلاوس هيشن، ص 27.
- 8 () ينظر علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير، ص 84، 85.
- 9 () ينظر علم الدلالة، غيرو، ص 27.
- 10 () علم اللغة العام، دي سوسير، ص 131.
- 11 () ينظر علم اللغة، دي سوسير، ص 85، علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 55. ومناهج البحث في اللغة، تمام حسان، ص 278، وفي علم الدلالة، محمد سعد محمد، ص 30.
- 12 () Theories of meaning 6، وعلم الدلالة أحمد مختار عمر، ص 56.
- 13 () ينظر علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، منقور عبدالجليل، ص 88.
- 14 () اللسانيات واللغة العربية، عبدالقادر الفاسي الفهري، ص 386.
- 15 () المصدر السابق، ص 386.
- 16 () ينظر في فلسفة اللغة، محمود فهمي حجازي، ص 96، وعلم الدلالة، منقور عبدالجليل، ص 89.
- 17 () ينظر علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 56، وفي علم الدلالة، سعد محمد سعد، ص 31.
- 18 () دور الكلمة في اللغة، أولمان، الهامش، ص 80.
- 19 () ينظر علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 57.
- 20 () علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 57.
- 21 () في فلسفة اللغة، محمود فهمي زيدان، ص 96.
- 22 () المعنى والتوافق مبادئ لتأصيل البحث الدلالي العربي، محمد غاليم، ص 47.
- 23 () اللغة والفكر وفلسفة الذهن، مصطفى الحداد، ص 56.
- 24 () المعنى والتوافق، محمد غاليم، ص 51.
- 25 () ينظر علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 57.
- 26 () ينظر علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 57، والدلالة الاجتماعية واللغوية للعبارة، من كتاب الفاخر في ضوء نظرية الحقول الدلالية، عطية سليمان أحمد، ص 83.
- 27 () المعنى والتوافق، محمد غاليم، ص 64.
- 28 () مدخل إلى علم الدلالة الحديثة، عبدالمجيد جحفة، ص 102.
- 29 () ينظر المصدر السابق، ص 102.
- 30 () في فلسفة اللغة، محمود فهمي زيدان، ص 97.
- 31 () ينظر علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 58، وفي علم الدلالة، محمد سعد محمد، ص 33، ومدخل إلى علم الدلالة الحديثة، عبدالمجيد جحفة، ص 102.
- 32 () علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 58.
- 33 () ينظر علم اللغة الاجتماعي، هرسون، ص 119.

() ينظر علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 59.	34
() مبادئ في اللسانيات، خولة طالب الإبراهيمي، ص 120.	35
() ينظر : علم الدلالة السمانتيكية والبرجماتية في اللغة العربية، شاهر الحسن، ص 88.	36
() ينظر مدخل إلى الدلالة، سالم شاكر، ص 26.	37
() ينظر علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 59، 60.	38
() ينظر : المصدر السابق، ص 60.	39
() علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، ص 304، 305.	40
() مدخل إلى علم الدلالة، سالم شاكر، ص 26.	41
() المصدر السابق، ص 28.	42
() المصدر نفسه، ص 28، وعلم الدلالة، منصور عبدالجليل، ص 92.	43
() ينظر علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 65، وعلم الدلالة، منصور عبدالجليل، ص 92.	44
() ينظر المصدر السابق، ص 65، 66، وعلم اللغة، محمود السعران، ص 208، 209.	45
() دور الكلمة في اللغة في الهامش، ص 81.	46
() علم اللغة، محمود السعران، ص 309.	47

فهرس المصادر والمراجع أولاً : الكتب العربية:

- 1- علم اللغة الحديث، المبادئ والأعلام، ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، سنة 1983م.
- 2- التحليل الدلالي ، إجراءاته ومناهجه، كريم زكي حسام الدين ، دار غريب ، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 2002م.
- 3- دور الكلمة في اللغة ، ستيفن أولمان ، ترجمة كمال بشر، دار غريب، القاهرة، الطبعة الثانية عشر ، د.ت.
- 4- علم الدلالة ، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الرابعة، سنة 1998م.

- 5- علم الدلالة، غيرو، ترجمة أنطوان أبوزيد، منشورات عويدات ، بيروت، باريس، الطبعة الأولى، سنة 1986م.
- 6- علم الدلالة، بالمر، ترجمة مجيد الماشطة ، مطبعة العمال المركزية، بغداد، سنة 1985م.
- 7- علم الدلالة، أصوله ومباحثه في التراث العربي، منصور عبدالجليل، دار الهدى، الجزائر، د.ط، سنة 2007م.
- 8- علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، دار الكتب، الموصل ، الطبعة الثانية، سنة 1988م.
- 9- في علم الدلالة، محمد سعد محمد، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 2002م.
- 10- في فلسفة اللغة، محمود فهمي حجازي، دار النهضة العربية، بيروت، سنة 1985م.
- 11- القضايا الأساسية في علم اللغة، كلاوس هشن، ترجمة وعلق عليه سعيد حسن البحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى، سنة 2003م.
- 12- اللسانيات واللغة العربية ،عبدالقادر الفاسي الفهري، منشورات عويدات، بيروت ، باريس، الطبعة الأولى، سنة 1985م.
- 13- اللغة والفكر وفلسفة الذهن، مصطفى الحداد، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى، سنة 2013م.
- 14- مبادئ في اللسانيات، خولة طالب الإبراهيمي، الطبعة الثانية، دار القصة للنشر، الجزائر ، سنة 2000م.
- 15- مدخل إلى علم الدلالة الحديثة، عبدالمجيد جحفة، دار توبقال، المغرب ، الطبعة الأولى، سنة 2000م.
- 16- مدخل إلى الدلالة ، سالم شاكر، ترجمة محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 1992م.
- 17- علم الدلالة السمانتيكية والبراجماتية في اللغة العربية، شاهر الحسن ، دار الفكر للنشر والتوزيع، دون ذكر لمكان الطبع، سنة 2001م.
- 18- مقدمة لدراسة علم اللغة، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993م.
- 19- مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، سنة 1979م.
- 20- المعنى والتوافق ، مبادئ لتأصيل البحث الدلالي العربي ، محمد غاليم، سلسلة أبحاث وأطروحات، منشورات الدراسات والأبحاث للتعريب، سنة 1999م.
- 21- علم اللغة الاجتماعي ، هدرسون، ترجمة محمود عباد، دار الكتب، القاهرة، سنة 1990م.
- 22- علم اللغة ، مقدم للقارئ العربي، محمود السعران، دار النهضة العربية، بيروت ، لبنان، د.ت.

ثانياً: الكتب الأجنبية :

Archarl G. K. The meaning of the meaning , 1923.

